كتاب التوبة

وفيه أربعة أبواب :

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول

في الحث على التوبة والاستغفار

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [2]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[3] اختلفوا في معناه قال عمر وأبي ومعاذ ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ هي أن تتوب، ثم لا تعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن في الضرع. وقال محمد بن كعب القرظي ـ رَحِمَهُ الله ـ: يجمعها أربعة أشياء؛ الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان.

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**». رواه البخاري [4].

وقال ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة**». رواه مسلم [5].

---

(1) سورة النور، الآية: 31.

(2) سورة هود، الآية: 3.

(3) سورة التحريم، الآية: 8.

(4) أخرجه البخاري (5/ 2324، رقم 5948). وأخرجه أيضًا: أحمد (2/ 341، رقم 8474)، والنسائى فى الكبرى (6/ 114، رقم 10270)، وابن حبان (3/ 204، رقم 925)، والبيهقى فى شعب الإيمان (1/ 438، رقم 639)، والديلمى (4/ 356، رقم 7024).

(5) مسلم (4/ 2075، رقم 2702)، وأخرجه أحمد (4/ 211، رقم 17881)، وعبد بن حميد (ص 142، رقم 364)، وأبو داود (2/ 84، رقم 1515)، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (ص 144، رقم 446)، وابن حبان (3/ 211، رقم 931)، والبغوى (1/ 124، رقم 89)، والطبرانى (1/ 302، رقم 887).

وقال ﷺ : «**لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح**» . رواه مسلم [1].

وقال ﷺ : «**إن الله تعالى يبسط يديه بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**» . رواه مسلم [2].

وقال ﷺ : «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**» .رواه مسلم [3].

وقال ﷺ : «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**[4]» .رواه الترمذي وقال : حديث حسن [5].

---

(1) أخرجه مسلم (4/ 2104، رقم 2747) .

(2) مسلم (4/ 2113، رقم 2759) ، وأخرجه أحمد (4/ 395، رقم 19547) ، والدارقطنى فى الصفات (1/ 20، رقم 18) . وأخرجه أيضًا : عبد بن حميد (ص 197، رقم 562) ، والرويانى (1/ 364، رقم 556) ، والبيهقى (8/ 136، رقم 16281) .

(3) أخرجه مسلم (4/ 2076، رقم 2703) ، وابن حبان (2/ 396، رقم 629) . وأخرجه أيضًا : النسائى فى الكبرى (6/ 344، رقم 11179) ، والحارث كما فى بغية الباحث (2/ 973، رقم 1077) .

(4) يغرغر : من الغرغرة أى ما لم تبلغ الروح الحلقوم .

(5) من حديث ابن عمر : أخرجه أحمد (2/ 153، رقم 6408) ، والترمذى (5/ 547، رقم 3537) وقال : حسن غريب . وابن ماجه (2/ 1420، رقم 4253) ، وابن حبان (2/ 394، رقم 628) ، والحاكم (4/ 286، رقم 7659) وقال : صحيح الإسناد . والبيهقى فى شعب الإيمان (5/ 395، رقم 7063) . وأخرجه أيضًا : عبد بن حميد (ص 267، رقم 847) ، وأبو يعلى (10/ 81، رقم 5717) ، والبغوى فى الجعديات (1/ 489، رقم 3404) .

ومن حديث عبادة بن الصامت : أخرجه ابن جرير فى تفسيره (302/4) .

ومن حديث أبى أيوب بشير بن كعب : أخرجه ابن جرير فى تفسيره (302/4) . =

وعن ابن عمر ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحدة مائة مرة «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**» . رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح [1].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ، ومن كل هم فرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب**»[2] . رواه أبو داود .

وقال ﷺ: «**من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف**» .صححه الحاكم [3].

وفي **الصحيحين** عن عائشة ـ رَضِيَ الله عَنْها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته: «**سبحان الله وبحمده أستغفره وأتوب إليه**» .

وقال ﷺ: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**» رواه البخاري [4].

= ومن حديث الحسن: أخرجه ابن جرير فى تفسيره (302/4) بلاغًا .

(1) أخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (6/ 57، رقم 29443) ، وأحمد (2/ 21، رقم 4726) ، وعبد بن حميد (1/ 251، رقم 786) ، والبخارى فى الأدب المفرد (1/ 217، رقم 618) ، وأبو داود (2/ 85، رقم 1516) ، وابن ماجه (2/ 1253، رقم 3814) ، والنسائى فى الكبرى (6/ 119، رقم 10292) ، وابن حبان (3/ 206، رقم 927) .

(2) أخرجه أبو داود (2/ 85، رقم 1518) ، وابن ماجه (2/ 1254، رقم 3819) ، والبيهقى (3/ 351، رقم 214) .

(3) أخرجه الحاكم (1/ 692، رقم 1884) وقال: صحيح على شرط الشيخين .

(4) البخارى (5/ 2323، رقم 5947) ، وأخرجه أحمد (4/ 124، رقم 17171) ، وابن أبى شيبة (6/ 56، رقم 29440) ، والنسائى (8/ 279، رقم 5522) ، وابن حبان (3/ 213، رقم 933) .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الرب وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»[1].

وقال خالد بن معدان[2]: قال الله تعالى: أحب عبادي إلي المتحابون بحبي، المتعلقة قلبوهم بالمساجد، المستغفرون بالأسحار، أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة فذكرتهم تركتهم وصرفت العقوبة عنهم.

وقال ابن الجوزي ـ رَحِمَهُ الله ـ: ورد في الخبر أن الملائكة تعرج إلى السماء بكتاب عبد وهو مملوء بالسيئات فإذا وقفوا لعرضه على اللوح المحفوظ وجدوا مكانه من اللوح المحفوظ مملوءا من الحسنات فيخرون من شدة الخوف على وجوههم لله سجدا ويقولون: سبحانك سبحانك وعزتك ما كتبنا عليه إلا ما عمل. فيقول لهم جلت قدرته: صدقتم يا ملائكتي لكن عبدي أشفق من زلته وخاف من معصيته، فتشفع إلي بدمعته فناداني بزلته وأقبل بالبكاء والنداء، فجدت عليه بالفضل والكرم.

وقال: الفضيل استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقالت رابعة استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير.

---

(1) أخرجه أحمد (3/ 29، رقم 11255)، وعبد بن حميد (ص 290، رقم 932)، وأبو يعلى (2/ 530، رقم 1399)، والحاكم (4/ 290، رقم 7672) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: الطبرانى فى الأوسط (8/ 333، رقم 8788). قال الهيثمى (207/10): رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والطبرانى فى الأوسط، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى.

(2) خالد بن معدان (104هـ/722م) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، أبو عبد الله: تابعي، ثقة، ممن اشتهروا بالعبادة. أصله من اليمن، وإقامته في حمص (بالشام) وكان يتولى شرطة يزيد بن معاوية. قال ابن عساكر في ترجمته: كان إذا أمر الناس بالغزو يجعل فسطاطه أول فسطاط يضرب. وكان كثير التسبيح فلما مات بقيت أصبعه تتحرك كأنه يسبح. ترجمته في الأعلام 2/ 299.

وقال بعض الحكماء من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا ولا يعلم.

وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري للؤم، وإن تركي استغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناكم عني وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد عفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين.

وقال أبو الفرج بن الجوزي ـ رَحِمَهُ الله ـ في **روضة المشتاق إلى الملك الخلاق**: خرج زمان داود ـ عليه السلام ـ ثلاثة نفر يستسقون فقال أحدهم: اللهم إنك أمرتنا بعتق عبيدنا إذا شابوا في خدمتنا وقد شبنا في خدمتك فتفضل علينا بعتقنا. وقال الثاني: اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا وقال الثالث اللهم إنك أمرتنا أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا ونحن مساكينك وقد وقفنا ببابك فجد علينا بفضلك وإحسانك.

قال مكحول الشامي: من أوى إلى فراشه، ثم تفكر فيما صنع في يومه، فإن عمل خيرا حمد الله تعالى، وإن كان أذنب استغفر الله تعالى، فإن لم يفعل كان كمثل التاجر الذي ينفق ولا يحسب يفلس ولا يشعر.

قال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال تائبا نادما حتى يدخل الجنة، فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكا موكلا لا يغلق فاعمل ولا تيأس.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، وإذا أنعم الله عليك فأكثر من الحمد، وإذا ورد عليك أمر تكرهه فأكثر من لا حول ولا**

قوة إلا بالله العلي العظيم، فهي دواء من لا دواء له».

وعن أبي بكر ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له**» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[1] الآية.

وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوب لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصا إن شاء الله تعالى: اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه، ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به في نفسي، ثم لم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ وخلأ وسر وعلانية يا حليم.

قال الغزالي ـ رَحِمَهُ الله ـ ويقال إنه استغفار الخضر عليه السلام.

(1) سورة آل عمران، الآية: 135.

الباب الثاني

في الحث على المبادرة إلى التوبة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ [1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ﴾ أي: قبولها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإيجابه على نفسه تفضلا ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمدا كان أو لم يكن وكل من عصى الله فهو جاهل، وقيل: معنى الجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾. قال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» [2].

وقوله: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾. ووقع في النزع ﴿قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ وهي في حالة السوق حين تساق روحه لا يقبل من كافر إيمان ولا من عاص توبة، قال الله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ [3]. ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين

(1) سورة النساء، الآيتان: 17، 18.

(2) تقدم تخريجه

(3) سورة غافر، الآية: 85.

أدركه الغرق .

قال بعض العارفين : ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها يخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا ، وهو أول ما يظهر منه من معاني قوله تعالى : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[1] وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[2] إلى آخرة السورة .

قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة .

قال الغزالي ـ رَحِمَهُ الله ـ : من ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى تصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو ، الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، ولذلك ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويف وأن أكثر صراخهم يا أف لمسوف فما هلك من هلك إلا بالتسويف فيكون تسويد القلب نقدا وإجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يتخطفه الأجل فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

قال أبو الفرج بن الجوزي ـ رَحِمَهُ الله ـ في **روضة المشتاق إلى الملك الخلاق** : ورد في الخبر أن بعض الأنبياء قال لملك الموت ـ عليه السلام ـ : أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال : نعم والله لي رسل كثيرة ؛ من الأعلال والأمراض والشيب والهرم ، وتغير السمع والبصر ، فإذا لم

(1) سورة سبأ ، الآية : 54.

(2) سورة المنافقون ، الآية : 10.

يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب فإذا قبضته ناديته ألم أقدم إليك رسولا بعد رسول ونذيرا بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير. فما من يوم تطلع فيه شمسه إلا وملك الموت ينادي يا أبناء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد، أذهانكم حاضرة وأعضاؤكم قوية شداد، يا أبناء الخمسين قد دنا الأخذ والحصاد، يا أبناء الستين أنسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب؟ فما لكم من نصير ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ (1).

وحكى أبو الفرج عن بعض السادة أنه قال: رأيت غلاما قد لبس الشعر ولزم العبادة والسهر فقلت: يا فتى، لقد أسرعت! فقال لي: يا شيخ سمعت المولى جلت قدرته يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ (2). كأنه جلت قدرته يقول: ففروا إلى الله قبل أن يوقفكم بين يديه في اليوم الشديد العسير والهول العظيم الخطير، فيقول ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

وقال أبو الفرج: ورد في الخبر أن العبد إذا حضر وقت وفاته وقبضه وحجب عن ولده وأهله يقول من شدة فجعته وعظيم حسرته، يا ملك الموت، أخّرني عاما أتوب فيه إلى ربي وأعمل فيه صالحا، وأنقل فيه مالي إلى قبري، فقد أتلفت في طلب الدنيا عمري، وأعتب نفسي فيما جمعته لغيري، فأخرني عاما وأنظرني. فيقول له ملك الموت: هيهات قد أفنيت الأعوام فلا عام، فيقول: أخرني شهرا. فيقول: هيهات قد أفنيت الشهور، فلا شهر، فيقول: أخرني يوما. فيقول: هيهات قد أفنيت الأيام فلا يوم، فيقول له: فأخرني ساعة فيقول: هيهات قد أفنيت الساعات فلا ساعة، فإذا فرغ من هذا الكلام بلغت روحه إلى صدره

(1) سورة فاطر، الآية: 37.

(2) سورة الذاريات، الآية: 50.

وأغلق باب التوبة في وجهه ، فإذا قبض أوقفه المولى جلت قدرته بين يديه ، فكلما أراد أن يعتذر بأمر من الأمور إليه قال : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ .

وحكى أبو الفرج عن بعض السادة أنه قال : وعظ الفضيل يوما أصحابه وعظا جمع فيه الشيوخ والشبان وكانوا سادة يؤثر فيهم اليسير من الخطاب والبيان ، فقال : يا معشر الشبان كم زرع أدركته الآفة قبل بلوغه وكماله ، ويا معشر الشيوخ هل يحصد الزرع إلا عند نضجه وتمامه؟ فما الذي تنظرون؟ وبأي عذر تعتذرون؟ وما الذي يقول منكم الصغير والكبير إذا قال لكم اللطيف الخبير ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ .

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

في بيان حقيقة التوبة ومقدماتها وعلاماتها وثمراتها وحدها وشروطها

اعلم أن التوبة في لسان العرب الرجوع، ويقال: تاب. أي: رجع. وهي رجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيه؛ قال الأستاذ أبو علي الدقاق ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ التوبة على ثلاثة أقسام؛ أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رَحِمَهُ الله ـ: فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة ولا لرهبة فهو صاحب أوبة.

ويقال أيضا: التوبة صفة المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] والإنابة صفة الأولياء والمقربين؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[2] والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين؛ قال الله عز وجل ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3].

وقال ذو النون ـ رَحِمَهُ الله ـ: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة.

وأما مقدماتها: فانتباه القلب عن رقدة الغفلة ورؤية العبد ما هو عليه من سوء

(1) سورة النور، الآية: 31.

(2) سورة ق، الآية: 33.

(3) سورة ص، الآية: 30.

الحال والتعرض لسخط الله تعالى وأليم عقابه وذكره ضعف صبره عن احتمال شديد عذابه فيحمله ذلك على التوبة.

وأما علاماتها: فهجران قرناء السوء والتوحش عنهم وحب العزلة وقلة الكلام والخوض ومجانبة الفضول وسكون الجوارح عن الحركات المذمومات من العبادة وملازمة الذكر والاستكثار من العبادة وإطراق الرأس وحفظه ونحول الجسم ودمع العين وحزن القلب وكثرة الأسف على ما أساء وفرط وتخلف وضيع من جواهر عمره النفيسة من المخالفات والشهوات الخسيسة وإدامة البكاء والتضرع والجأر في طلب الإقالة آناء الليل وأطراف النهار.

وأما ثمراتها: فمنها رجوعه حبيبا للرحمن بعد أن كان حبيبا للشيطان ودخوله في رضا المولى بعد خروجه من سخط الله تعالى وتطهيره من السيئات التي كان يستحق بها العذاب الأليم وربحه الحسنات التي ينال بها النعيم المقيم والقرب من الحبيب المولى الكريم ومسارعته في الخيرات بانبعاث جوارحه في العمل بعد أن كان بقيد شؤم الذنوب مكبولا وطعم لذة الطاعات وحلاوة المناجاة وصيرورة العمل بعد الرد مقبولا وسلامته من سيئات ربما جرت المصرَّ عليها إلى الكفر والعياذ بالله، كما جاء في الكتاب المكنون ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾[1].

وعلى الجملة يصير بعد أن كان خبيثا طيبا وبعد أن كان مبعدا مقربا وبعد أن كان مبغوضا حبيبا وبعد أن كان المدعو غير سامع لدعائه مجيبا وبعد الإعراض عنه الإقبال عليه وبعد خروج نور الإيمان من قلبه رجوعه إليه وبعد أن كان يتنحى عنه الملائكة الكرام من نتن ريحه صاروا عليهم السلام يشمون منه طيب الطاعة

(1) سورة الروم، الآية: 10.

كما جاء في الحديث «**لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»[1].

وأما حدها: فهو ترك اختيار ذنب سبق منك مثله منزلة لا صورة تنزيها لله تعالى وحذرا من سخطه، وهذا الحد حكاه الإمام أبو حامد الغزالي ـ رَحِمَهُ الله ـ وارتضاه، احترز بقوله: منزلة لا صورة. لتصح توبة الشيخ الهرم الذي لا يقدر على قطع الطريق والزنا إذ لا يقدر على ترك اختيارهما لكونه عاجزا عن فعلهما فلا يوصف بترك اختيار ما هو عاجز عنه ويقدر على ترك اختيار ما هو مثلهما في المنزلة في المعاصي الفرعية وإن تفاوتت في الإثم فكلها معاص منزلتها دون منزلة البدعة ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فتصبح توبة عنهما.

وأما شروطها: فالندم على ما تقدم من الذنوب وترك الذنب في الحال تعظيم الله تعالى وحذرا من سخطه، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي ألبتة، فهذه الشروط لا بد منها، وإلا فلا تصح التوبة.

وأما ما ورد في الخبر أن الندم توبة فمحمول عند بعض العلماء على أنه معظم التوبة كما قال ﷺ: «**الحج عرفة**»[2]. أي معظم الحج، ولا بد من إرضاء

(1) من حديث أبى هريرة وأبى مسعود: أخرجه أحمد (2/ 232، رقم 7174)، وعبد بن حميد (ص 288، رقم 921)، ومسلم (2/807 رقم 1151)، والنسائى (4/162 رقم 2213 عن أبى سعيد، 2214 عن أبى هريرة) وابن خزيمة (3/ 198، رقم 1900). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (2/ 272، رقم 8893).

ومن حديث على: أخرجه النسائى (4/ 159، رقم 2211).

ومن حديث ابن مسعود: أخرجه النسائى (4/ 161، رقم 2212).

(2) أخرجه أحمد (4/ 309، رقم 18796)، وأبو داود (2/ 196، رقم 1949)، والترمذى (3/ 237، رقم 889)، والنسائى (5/ 264، رقم 3044)، وابن ماجه (2/ 1003، رقم 3015)، والحاكم (2/ 305، رقم 3100) وقال الحاكم: صحيح. والبيهقى (5/ 173، رقم 9593). وأخرجه أيضًا: الطيالسى (ص 185، رقم 1309)، وابن أبى شيبة (3/ 226، رقم 13683)، والدارقطنى (2/240)، والديلمى (2/ 148، رقم 2759).

الخصوم بأداء الحقوق أو بالتحلل منه في جميع المظالم.

والحقوق التي يجب أداؤها ويتحلل منها قسمان:

أحدهما: لله تعالى، وهو ترك واجب؛ من صلاة أو صوم أو كفارة أو غيرها، فيجب قضاء ما أمكن من ذلك.

القسم الثاني: للعباد وهو على خمسة؛ أقسام في النفس، أو في المال، أو في العرض، أو الحرمة، أو في حق من الحقوق غير هذه المذكورات؛ فالخروج عن ذلك بالتمكين من القصاص في النفس أو الدية، أو في الاستحلال، وبالرد والاستحلال في المال، وبالاستحلال فقط في العرض إن لم يخف زيادة غيظ وهيجان فتنة إذا ذكر له ذلك، ويكذب نفسه عند من بهته أو فسّقه أو كفره؛ فإن خشي من ذكر ذلك له ما ذكّرناه، فالرجوع إلى الله تعالى في الابتهال والتضرع أن يرضي عنه الخصوم، والاستغفار لهم وكذلك في الحرمة بأن خانه في أهله أو ولده أو من يتعلق به يتضرع إلى الله عز وجل، ويرغب إليه أن يرضيه عنه، فيجعل له خيرا كثيرا في مقابلة ذلك، فإن أمن الفتنة والغيظ وهو نادر بعيد جدا فيستحل منه وأما سائر الحقوق الخارجة عن هذه الأقسام فأعني به ما لا يقابل بعوض، كالكلب وجلد الميتة وسائر الأعيان النجسة التي لا يجوز اقتناؤها، فطريق الخروج عنها بالرد إن أمكن وبالاستحلال إن لم يمكن لتلف أو غيره، ولا تغرم إذ لا قيمة بخلاف المال.

ومن الحقوق: المنع من أخذ بشفعة أو بتصرف في ولاية، أو نحو ذلك من الحقوق يجب الاستحلال منه، وحيث عدم صاحب الحق في جميع هذه الأقسام، وإن كان بموت رجع إلى الوارث في كل ما يورث، فإن لم يكن له وارث، أو كان ممن لا يورث رجع فيه إلى الله سبحانه وتعالى في إرضاء الخصوم، والدعاء لهم، والتصدق عنهم، وإكثار الحسنات لاستيفائهم في

القيامة ، وإن كان بغيبة ولم يمكن التوصل إلى البراءة ، فإن كان مما تدخله النيابة ؛ كالمال والحقوق رجع فيه إلى الوكيل ، فإن لم يكن فإلى الحاكم وينتظر حضوره فيما عدا ذلك ، والله أعلم ، نقل هذا جميعه من كتاب **كفاية المعتقد ونكاية المنتقد** تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الزاهد الورع عبد الله بن أسعد اليافعي رَحِمَهُ الله .

وقال الغزالي ـ رَحِمَهُ الله ـ في **الإحياء** : من كثرت مظالمه وأراد التوبة وعجز عن رد المظالم إلى أهلها فعل ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكون من الحسنات حتى يقتص منه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم .

ونقل ابن الجوزي في **روضة المشتاق** عن بعض السادة أنه قال : للتائب الصادق خمس علامات :

أولها : ظهور طهارته وعصمته بعد رجوعه وتوبته .

الثانية : ذهاب فرحه بالدنيا وإقباله على طاعة المولى .

الثالثة : إخراج هيئة المذنبين من قلبه وبكاؤه في الخلوات على خطيئته وذنبه .

الرابعة : أن يستكثر لنفسه القليل من الدنيا وأن يذكر ما بين يديه من المحن والبلوى وأن أكل طعاما طيبا ، قال : يا ليت شعري هل أعد لي الضريع في سجن الجحيم ، وإن شرب ماء باردا تفكر في أحوال المهل والحميم وإن لبس ثوبا لينا تفكر في مقطعات النيران وسرابيل القطران وإن تقرب بطاعة استقلها .

الخامسة : أن يكون تاركا لطلب الرزق المضمون بالإقبال على المولى في الحركة والسكون .

الباب الرابع

في ذكر شيء من أحوال التوابين

اللهم تب علينا برحمتك يا أرحم الراحمين

توبة آدم :

قال عليه السلام قال الله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (1).

قال كعب : اختلفوا في تلك الكلمات ؛ قال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن : هي قوله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾(2) الآية . وقال محمد بن كعب القرظي : هي قوله : لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الرحمين . وقال عبيد بن عمير هي أن آدم قال : يا رب أرأيت ما أتيت شيء ابتدعته من تلقاء نفسي أم شيء قدرته علي قبل أن تخلقني؟ قال الله : لا بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك . قال : يا رب فكما قدرته علي فاغفر لي .

وقيل : هي ثلاثة أشياء الحياء والدعاء والبكاء ؛ قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ : بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوما ، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة .

وروى المسعودي عن يونس بن خباب وعلقمة بن مرثد قالا : لو أن دموع

(1) سورة البقرة ، الآية : 37.

(2) سورة الأعراف ، الآية : 23.

أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة، ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر؛ حيث أخرجه الله من الجنة.

قال شهر بن حوشب: بلغني أن آدم لما هبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياء من الله ـ عز وجل ـ قال محمد بن القيس: لما أكل آدم من الشجرة ناداه ربه، يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك؟ قال: يا رب أطعمتني حواء. قال لحواء: لم أطعمته؟ قالت: أمرتني الحية. قال للحية: لم أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس. فقال الله: أما أنتِ يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر، وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك، وأما أنت يا إبليس فملعون مدحور.

قال أبو الليث: قبلت توبة آدم لخمس، ولم تقبل توبة إبليس لخمس، فآدم عليه السلام أقر بالذنب على نفسه وندم عليه ولام نفسه وأسرع في التوبة ولم يقنط من رحمة الله، وإبليس لم يقر على نفسه بالذنب ولم يندم عليه ولم يلم نفسه ولم يسرع في توبته وقنط من رحمة الله تعالى [1].

وقال ابن الجوزي: لما عصى آدم ـ عليه السلام ـ بكى عليه كل شيء في الجنة إلا الذهب والفضة، فأوحى الله إليهما: لم لا تبكيان على آدم؟ وهو أعلم بذلك، فقالا: ما كنا نبكي على من يعصيك. فقال الله: وعزتي وجلالي لأجعلن قيمة كل شيء بكما، ولأجعلن بني آدم خدما لكما.

قال القاضي أبو بكر بن العربي ـ رَحِمَهُ الله ـ في قوله تعالى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [2]: لا يجوز لأحدنا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم عليه السلام، إلا إذا

(1) تنبيه الغافلين 351.

(2) سورة طه، الآية: 121.

تلاه في أثناء كلام الله تعالى، وقول نبيه ﷺ، فأما أن نبدأ بذلك من قبل أنفسنا فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدم الذي اجتباه الله تعالى وتاب عليه.

توبة داود عليه الصلاة والسلام:

روي أن داود ـ عليه السلام ـ رأى في الكتب ما أعطي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ـ من الفضل، فقال: يا رب، أرى الخير كله قد ذهب به آبائي! فأوحى الله إليه أنهم ابتلوا فصبروا. فقال: يا رب، لو ابتليتني لصبرت. فأوحى الله إليه: إنك تبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس، فلما جاء الموعد دخل محرابه وأغلق عليه بابه، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب في غاية الحسن، فوقع بين رجليه فأراد أخذها ليري بني إسرائيل قدرة الله، فذهبت إلى كوة هناك، فأراد أخذها فذهبت، فنظر في الكوة فإذا بامرأة جميلة أجمل النساء تغتسل فتعجب منها، فالتفت فأبصرت ظله فنفضت شعرها، فغطى جميع بدنها، فازداد عجبا. قالوا: وكان عمره إذ ذاك سبعين سنة، فسأل عنها فقيل: هي امرأة أوريا بن حنانا. قالوا: فأحب أن يقتل ليتزوج بها، قالوا: وكان أوريا مع ابن أخت داود في جيش، فأرسل إليه أن قدمه قدام التابوت، وكان من تقدم قدامه لا يحل له الرجوع حتى يفتح عليه أو يقتل، فقدمه ففتح عليه، ثم أرسل إليه أن قدمه إلى جيش كذا أعظم من الأول، فقدمه ففتح عليه، فأمره أن يقدمه ثالثة إلى جيش أعظم من الأولين ففعل فقتل. قالوا: وانقضت عدتها فتزوجها داود، وهي أم سليمان.

وقال الكواشي في **تفسيره**: وأنكر بعضهم هذا النقل؛ لأنه غير ثابت عنده، ولأن الأنبياء منزّهون عن مثل هذا.

وعن علي ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أنه قال: من حدث بحديث داود على ما يرويه

القصاص جلدته مائة وستين، وهي حد الفرية على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وروي عن ابن مسعود ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أنه قال: كان ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته؛ قال أهل التفسير: كان ذلك مباحا لهم غير أن الله تعالى لم يرض له ذلك؛ لأنه كان رغبة في الدنيا وازديادا للنساء، وقد أغناه الله عنها من غيرها. قالوا: فلما دخل داود بامرأة أوريا لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله إليه ملكين في صورة رجلين يقال كانا جبريل وميكائيل، وكان من خبرهما ما قص الله علينا في كتابه في قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾[1].

وروي عن ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ وكعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا جميعا: إن داود لما دخل عليه الملكان، فقضى على نفسه، فتحولا في صورتهما فعرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه. وعلم داود أنما عني به، فخر ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة، ولوقت صلاة مكتوبة، ثم يعود ساجدا تمام أربعين يوما، لا يأكل ولا يشرب، وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه، وهو ينادي ربه ـ عز وجل ـ ويسأله التوبة.

قال مجاهد: مكث أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينيه، حتى غطى رأسه، فنودي: يا داود، أجائع فتطعم، أم ظمآن فتسقى، أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج منها العود، فاحترق من حر جوفه، ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة.

وقال وهب بن منبه[2]: لما تاب الله على داود، وقال: يا رب غفرت لي لا

(1) سورة ص، الآيات: 21 ـ 24.

(2) وهب بن منبه (34 ـ 114هـ/654 ـ 732م) هو: وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو =

أنسى خطيئتي فاستغفر منها للخطائين يوم القيامة، قال: فوسم الله خطيئته في يده اليمنى، فما رفع فيها طعاما ولا شرابا إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيبا في الناس إلا بسط راحته، فاستقبل الناس ليروا وسم خطيئته، وكان يبدأ إذا دعا استغفر للخطائين يقول: تعالوا إلى داود الخاطئ، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه، وكان يجعل خبز الشعير في قصعته ولا يزال يبكي عليه حتى يبتل بدموع عينيه، وكان يذر عليه الملح والرماد، فيأكل ويقول: هذا أكل الخاطئين.

قال: وكان داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر، فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله، وقام الليل كله.

ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله ـ عز وجل ـ وفي القصة أن الوحش والطير كانت تسمع إلى قراءته، فلما فعل ما

= عبد الله: مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. يعد في التابعين. أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن. وأمه من حمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. وكان يقول: سمعت اثنين وتسعين كتابا كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا قليل، ووجدت في كلها أن من أضاف إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر. ومن كلامه، وينسب إلى غيره: إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة! واتهم بالقدر، ورجع عنه. ويقال: ألف فيه «كتابا» ثم ندم عليه. وحبس في كبره وامتحن. قال صالح بن طريف: لما قدم يوسف بن عمر العراق، بكيت، وقلت: هذ الذي ضرب وهب بن منبه حتى قتله. وفي «طبقات الخواص» أنه صحب ابن عباس ولازمه ثلاث عشرة سنة. من كتبه «ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم» رآه ابن خلكان في مجلد واحد، وقال: هو من الكتب المفيدة. وله «قصص الأنبياء» و«قصص الأخيار». ترجمته في: طبقات ابن سعد 5/ 543، طبقات خليفة (2652)، تاريخ البخاري 8/ 164، المعارف 459، الجرح والتعديل القسم الثاني من المجلد الرابع 24 ذيل المذيل 640، الحلية 4/ 23، طبقات الفقهاء للشيرازي 74، طبقات فقهاء اليمن 57، معجم الأدباء 19/ 259، تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من المجلد الثاني 149، وفيات الأعيان 6/ 37، تذكرة الحفاظ 1/ 95، العبر 1/ 143.

فعل كانت لا تصغي إلى قراءته فروي أنها قالت يا داود ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك .

توبة سحرة فرعون :

روي أن سحرة فرعون ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا ، فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي تركب بعضها بعضا ، فألقى موسى عصاه فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق .

قال ابن زيد : كان اجتماعهم بالأسكندرية ، ثم فتحت فاها سبعين ذراعا ، فكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل ، وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم ، فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألفا ، ثم أخذها موسى فصارت عصا ، فقالت السحرة : لو كان ما يصنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا ، فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله تعالى ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال فرعون : إياي تعنون؟ فقالوا : ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [1].

وذكر الكلبي أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وذكر غيره أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [2].

قال الشيخ عبد العزيز ـ رَحِمَهُ الله ـ في طهارة القلوب المكلفون أربعة أقسام :

الأول : قوم خلقهم الله تعالى لخدمته وجنته وهم الأنبياء والأولياء

(1) سورة الشعراء ، الآيات : 46 ـ 48.

(2) سورة القصص ، الآية : 35.

والصالحون والمؤمنون عاشوا في الدنيا بين آثاره وأنواره اطمأنت بذكره قلوبهم وطابت بطاعة الله حياتهم وعلت بمحبته أنوارهم ورفعت في الملكوت أذكارهم قال الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1] الحياة الطيبة لذة الطاعة وعز القناعة فازوا بعز الدارين ونالوا أشرف المنزلتين فطوبى لهم وحسن مآب .

الثاني : قوم خلقهم الله تعالى لجنته دون خدمته وهم الذين عاشوا في الدنيا كفارا ثم ختم لهم بالإيمان أو فرطوا مدة حياتهم وانهمكوا بالعصيان ثم تاب عليهم عند الخاتمة فماتوا على حال التوبة والإحسان كسحرة فرعون وكانوا ثلاثين ألفا على ما يقال آمنوا بالله وقتلوا من يومهم ذلك فدخلوا الجنة كانوا أول النهار يحلفون ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2] ثم بعد ساعة يحلفون ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾[3] كانوا يطلبون الجزاء من فرعون ويقولون ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[4] ثم بعد ساعة يقولون ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[5] والعجب أن الله تعالى أنطق فرعون بما كان في باطنه البشري وهو قوله ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[6] فكانوا مقربين عند رب العالمين .

الثالث : قوم خلقهم الله لا لخدمته ولا لجنته وهم الذين عاشوا في الدنيا كفارا ثم ماتوا على الكفر حرموا في الدنيا نعم الإيمان وفي الآخرة يخلدون في

(1) سورة النحل ، الآية : 97.
(2) سورة الشعراء ، الآية : 44.
(3) سورة طه ، الآية : 72.
(4) سورة الشعراء ، الآية : 41.
(5) سورة طه ، الآيتان ، 72، 73.
(6) سورة الشعراء ، الآية : 42.

العقاب والهوان .

الرابع : قوم خلقهم الله لخدمته دون جنته وهم الذين كانوا عاملين بطاعة الله ثم مكر بهم فطردوا عن باب الله تعالى وماتوا على الكفر فنسأل الله السلامة بمنه وكرمه خاتمة الخير .

توبة قوم يونس عليه السلام :

قال ابن مسعود ، وسعيد بن جبير [1]، ووهب : إن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان ، فدعاهم فأبوا فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ، فأخبرهم بذلك فقالوا : إنا لم نجرب عليه كذبا ، فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء ، وإن لم يبت فاعلموا أن البلاء مصبحكم ، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا غشيهم العذاب فكان فوق رءوسهم قدر ميل .

وقال وهب : غامت السماء غيما أسود هائلا ، يدخن دخانا شديدا ، فهبط حتى غشي مدينتهم ، فلما رأوه وأيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه ، فقذف الله في قلوبهم التوبة ، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية ، وفرقوا بين كل

(1) هو : سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبى ، من أكابر أصحاب ابن عباس وأئمة الإسلام فى التفسير والفقه وأنواع العلوم ، وكثرة العمل الصالح ، وقد قال ابن عباس حين أتاه أهل الكوفة يسألونه : أليس فيكم سعيد بن جبير؟! . كان مقتله على يد الحجاج بن يوسف سنة أربع وتسعين ، وقيل سنة خمس وتسعين ، واختلفوا فى عمره يوم قتل ، فقيل : كان عمره وقتذاك تسعا وأربعين ، وقيل سبعا وخمسين . ترجمته عند ابن سعد : الطبقات الكبرى 6/ 256، وأبى نعيم : حلية الأولياء 4/ 272، والمزى : تهذيب الكمال 10/ 358.

والدة وولدها من الناس والأنعام فحن بعضهم إلى بعض وعلت أصواتهم وتضرعوا إلى الله تعالى، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم فكشف عنهم العذاب، وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس ينتظر العذاب، وهلاك قومه فلم ير شيئا وكان من كذب ولم تكن له بينة قتل فقال يونس كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغير أجر.

وعن ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ أنه خرج مغاضبا لقومه، فأتى بحر الروم فإذا سفينة فركبها فلما توسط بهم السفينة تكفأت حتى كادوا أن يغرقوا فقال الملاحون: ههنا رجل عاص أو عبد آبق، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بمن فيها فاقترعوا ثلاثا فوقعت القرعة فيها على يونس، فقام وقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق فألقى نفسه في الماء فابتلعه حوت، ثم جاء حوت أكبر منه وابتلع ذلك الحوت فأوحى الله إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك.

قال ابن مسعود: فأهوى به الحوت إلى قرار الأرض السابعة كان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [1]. فاستجاب له ربه، فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر، وهو كالفرخ الممعط فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهو الدباء، فجعل يستظل تحتها وقيض الله له وعلة يشرب لبنها حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي فنام نومة فاستيقظ، وقد يبست الشجرة فحزن حزنا شديدا وأصابه أذى الشمس فجعل يبكي فبعث الله جبريل إليه فقال أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون من أمتك وقد أسلموا وتابوا؟

(1) سورة الأنبياء، الآية: 87.

ونقل أبو عبد الله القرطبي عن الطبري أنه قال : خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب يروى ذلك عن جماعة من المفسرين .

وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب وإنما رأوا العلامة التي تدل عليه ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان .

قال القرطبي وقول الزجاج حسن فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك وقوم يونس تابوا قبل ذلك ويعضد هذا قوله ﷺ : «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[1] والغرغرة : الحشرجة وذلك هو حال التلبس بالموت وما قبل ذلك فلا ، والله أعلم .

حكايات ثمان :

الأولى : روي أن لقمان كان عبدا حبشيا فاشتراه رجل وجاء به إلى داره ، وكان له ثلاث بنات يبغين في القرية ، فأراد أن يخرج إلى ضيعة له فقال له : إني قد أدخلت إليهن طعامهن وما يحتجن إليه فأغلق الباب ولا تفتحه حتى أجيء . ففعل ذلك ، فقال له البنات : افتح الباب . فأبى فشججنه فغسل الدم وجلس ، فلما قدم سيده لم يخبره بشيء ، ثم أراد سيده الخروج ثانيا فقال له مثل القول الأول ، ثم إنهن شججنه ، فلما جاء مولاه لم يخبره بشيء ، فقالت الكبيرة منهن : ما بال هذا العبد الحبشي أولى بطاعة الله ـ عز وجل ـ مني والله لأتوبن فتابت ، فقالت الصغيرة : ما بال هذا العبد الحبشي وهذه الكبرى أولى بطاعة الله مني والله لأتوبن فتابت ، فقالت الوسطى : مال بال هذا العبد الحبشي وهاتين أولى بطاعة الله تعالى مني فتابت ، فقال غواة القرية : ما بال هذا العبد الحبشي

(1) تقدم تخريجه .

وبنات فلان أولى بطاعة الله تعالى منا، والله لنتوبن فتاب الجميع وصاروا عُباد القرية ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ.

الحكاية الثانية: يروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصى الله عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرآى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إليه أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصه أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأملهناك فإن رجعت إلينا قبلناك.

الحكاية الثالثة: قيل كان الفضيل بن عياض ـ رَحِمَهُ الله ـ يقطع الطريق وسبب توبته أنه كان يعشق جارية فبينما هو ذات ليلة يرتقي الجدار إليها إذ سمع تاليا يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] فقال بلى يا رب قد آن فآواه الليل إلى خربة وإذا فيها رفقة فقال بعضهم نرتحل وقال بعضهم حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطعه علينا فتاب فضيل وأمنهم وجاور الحرم إلى أن مات فيه رضي الله عنه.

الحكاية الرابعة: قال الشيخ عبد الواحد بن زيد ـ رَحِمَهُ الله ـ كنت في مركب فطرحتنا الريح إلى جزيرة فإذا فيها رجل يعبد صنما فقلنا يا رجل من تعبد؟ فأومأ إلى الصنم فقلنا له إن إلهك هذا المصنوع وعندنا من يصنع مثله ما هذا بإله يعبد قال فأنتم من تعبدون؟ قلنا نعبد الذي في السماء عرشه وفي الأرض بطشه وفي الأحياء والأموات قضاؤه تقدست أسماؤه وجلت عظمته وكبرياؤه قال ومن أعلمكم بهذا؟ قلنا وجه إلينا هذا الملك رسولا كريما فأخبرنا بذلك قال فما فعل الرسول؟ قلنا لما أدى الرسالة قبضه الله إليه واختار له ما لديه قال فهل ترك عندكم علامة؟ قلنا نعم ترك عندنا كتابا للملك قال فأروني كتاب الملك فإنه

(1) سورة الحديد، الآية: 16.

ينبغي أن تكون كتب الملوك حسانا فأتيناه بالمصحف فقرأنا عليه سورة فلم يزل يبكي حتى ختمنا السورة فقال ينبغي أن صاحب هذا الكلام لا يعصى ثم أسلم وحسن إسلامه وعلمناه شرائع الدين وسورا من القرآن فلما كان الليل صلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا فقال يا قوم هذا الإله الذي دللتموني عليه ينام؟ قلنا لا يا عبد الله هو عظيم قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ثم قال فبئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام فأعجبنا كلامه فلما قدمنا عبادان قلت لأصحابي هذا قريب عهد بالإسلام فحملنا له دراهم وأعطيناه فقال ما هذا؟ قلنا دراهم تنفقها فقال لا إله إلا الله دللتموني على طريق ولم تسلكوها أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنما من دونه فلم يضيعني وأنا لا أعرفه فكيف يضيعني الآن وأنا أعرفه فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لي إنه في الموت فقلت له هل من حاجة؟ قال قد قضى حوائجي من جاء بكم إلى الجزيرة فقال عبد الواحد فغلبتني عيني فنمت عنده فرأيت روضة خضراء فيها قبة وفي القبة سرير وعلى السرير جارية حسناء لم ير أحسن منها وهي تقول بالله إلا ما عجلتم به إلي فقد اشتد شوقي إليه فاستيقظت فإذا به قد فارق الدنيا فغسلته وكفنته وواريته فلما كان الليل رأيت في منامي تلك الروضة وفيها تلك القبة وعلى ذلك السرير تلك الجارية وهو إلى جانبها وهو يقرأ هذه الآية ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[1] ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ .

الحكاية الخامسة : حكي أن رابعة العدوية كانت تصلي ذات ليلة فدخل عليها لص فنظر في البيت يمينا وشمالا فلم ير شيئا غير إبريق كانت تتوضأ به فقالت له رابعة يا هذا إن كنت من الشطار فلا تخرج إلا بشيء فقال إني لم أجد شيئا فقالت يا مسكين توضأ من هذا الإبريق وادخل إلى هذا المخدع وصل ركعتين

(1) سورة الرعد ، الآيتان : 23، 24.

فإنك لا تخرج إلا بشيء ففعل ما أمرته رابعة فلما قام يصلي رفعت طرفها إلى السماء فقالت سيدي ومولاي هذا قد أتى إلي فلم يجد عندي شيئا وقد أوقفته على بابك فلا تحرمه جزيل ثوابك فلذت له العبادة فلم يزل يصلي إلى آخر الليل فدخلت رابعة عند السحر فوجدته ساجدا يتذلل بين يدي مولاه فقالت له كيف كانت ليلتك؟ قال بخير وقفت بين يدي مولاي بذلي وفقري فجبر كسري وقبل عذري ثم خرج هائما على وجهه فرفعت رابعة رأسها إلى السماء وقالت مولاي هذا عبد وقف ببابك ساعة واحدة فقبلته وأنا منذ عرفتك بين يديك أفتراك قبلتني أم لا؟ فنوديت في سرها يا رابعة من أجلك قربناه وبدعائك قبلناه.

الحكاية السادسة: عن ذي النون المصري ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قال بينما أنا أمشي على شاطئ النيل إذ رأيت عقربا تدب قال فأخذت حجرا وأردت قتلها فهربت بسرعة فوقعت على شاطئ النيل فخرجت ضفدعة فوثب العقرب على ظهرها فعامت بها حتى خرجت بها إلى الجانب الآخر فتبعتها فلما بلغت البر نزلت عن ظهرها وإذا برجل سكران نائم وثعبان قد أقبل إليه ليلدغه فأسرعت العقرب إلى الثعبان فلدغته لدغة تقطع الثعبان منها قطعا فأيقظت ذلك الرجل من نومه فقام فزعا مرعوبا فلما رأى الثعبان ولى هاربا فقلت له لا تخف قد كفيت أمره وقصصت عليه القصة فأطرق رأسه ثم رفعه إلى السماء وقال يا رب هكذا بمن عصاك فكيف بمن أطاعك؟ وعزتك لا عصيتك بعدها ثم ولى باكيا وهو يقول:

يـا راقـدا والجـليل يحـرسـه ... من كل سوء يدب في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك ... ومـنـه تـأتي فـوائـد الـنـعـم

الحكاية السابعة: عن بعض الأكراد ممن كان يقطع الطريق وينهب الأموال قال بينما أنا وجماعة من أصحابي جلوس وقد خرجنا نقطع الطريق وانتهينا إلى مكان فيه ثلاث نخلات واحدة منهن ليس فيها ثمر وإذا بعصفور يحمل رطبة من

نخلة مثمرة إلى رأس النخلة التي ليس فيها ثمر حتى تكرر منه ذلك عشر مرات وأنا أنظر فخطر بقلبي أن أقوم وأنظر فصعدت النخلة فإذا في رأسها حية عمياء فاتحة فاها والعصفور يضع الرطب في فيها فبكيت وقلت سيدي هذه حية قد أمر نبيك بقتلها فلما أعميتها أقمت لها عصفورا يقوم لها بالكفاية وأنا عبدك وأقر بأنك واحد أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل فوقع بقلبي يا فلان بابي مفتوح فكسرت سيفي ووضعت التراب على رأسي وصحت الإقالة فإذا أنا بهاتف يقول قد أقلناك قد أقلناك فأتيت رفاقي فقالوا ما لك قد أزعجتنا فقلت كنت مهجورا وقد صولحت وحكيت لهم القصة فقالوا ونحن نصالح أيضا فرمينا بسلاحنا وثيابنا وأحرمنا وقصدنا مكة وأقمنا نمشي ثلاثة أيام ثم دخلنا قرية فإذا نحن بعجوز عمياء فمررنا عليها فسألتنا أفيكم فلان الكردي؟ قلنا نعم فأخرجت إلينا ثيابا وقالت مات ولدي وخلف هذه الثياب فرأيت النبي ﷺ في المنام ثلاث ليال يقول أعطي هذه الثياب لفلان الكردي قال فأخذتها فاكتسيت بها أنا وأصحابي ثم مضيت إلى أن أتينا مكة.

الحكاية الثامنة: سئل مالك بن دينار ـ رَحِمَهُ الله ـ عن سبب توبته فقال كنت شرطيا وكنت منهمكا على شرب الخمور ثم إني اشتريت جارية نفيسة فوقعت مني أحسن موقع فولدت لي بنتا فشغفت بها فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبا وألفتني وألفتها فكنت إذا وضعت المسكر جاءت إلي وجاذبتني إياه وأهرقته على ثوبي فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدني الحزن عليها فلما كانت ليلة النصف من شعبان وكانت ليلة الجمعة بت ثملا من الخمر ولم أصل صلاة العشاء فرأيت كأن أهل القبور قد خرجوا وحشر الخلائق وأنا معهم فسمعت حسا من ورائي فالتفت فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعا نحوي فمررت بين يديه هاربا فزعا مرعوبا فمررت في طريق وإذا بشيخ نقي الثياب طيب الرائحة فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت أجرني وأغثني

فقال أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه ولكن سر وأسرع لعل الله يسبب ما ينجيك منه فوليت هاربا على وجهي فصعدت على شرف من شرف القيامة فأشرفت على طبقات النيران فنظرت إلى هولها فكدت أهوي فيها من فزع التنين وهو في طلبي فصاح بي صائح ارجع فلست من أهلها فاطمأننت إلى قوله ورجعت ورجع التنين في طلبي فأتيت الشيخ فقلت يا شيخ سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل فبكى الشيخ وقال أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك فنظرت إلى جبل مستدبر فيه كوى مخرقة وستور معلقة على كل خوخة وكوة مصراع من الذهب الأحمر مفصصة بالياقوت مكوكبة بالدرر وعلى كل مصراع ستر من الحرير فلما نظرت إلى الجبل هربت إليه والتنين ورائي حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه فإذا الستور قد رفعت والمصاريع قد فتحت فأشرف علي أطفال بوجوه كالأقمار وقرب التنين مني فتحيرت في أمري فصاح بعض الأطفال ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه فأشرفوا فوجا بعد فوج وإذا ببنتي التي ماتت أشرفت علي معهم فلما رأتني بكت وقالت أبي والله ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلقت بها ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هاربا ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي وقالت يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] فبكيت وقلت يا بنية وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت يا أبت نحن أعرف به منكم قلت فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني قالت ذاك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهم قلت فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي قالت

(1) سورة الحديد، الآية: 16.

يا أبت ذاك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء قلت يا بنية وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا ونشفع لكم ، فانتبهت فزعا فلما أصبحت فارقت ما كنت عليه وتبت إلى الله عز وجل .

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

obeikandl.com